من «الدهر» إلى «التاريخ».
عناصر أولية في نظرية حول الشعر الشعبي

السيد ولد اباه
قسم الفلسفة

لقد لاحظ باستغراب كامل الشيخ سيديا بابا في مقدمة كتابه حول «تاريخ ادوعيش ومشظوف» (١) غياب الكتابة التاريخية لدى علماء بلاد شنقيط رغم أنهم أولوا اهتمامهم كل أنماط المعارف العربية الإسلامية وأبدعوا فيها عظيم الإبداع :

«*وكنت أتعجب من علماء هذه البلاد البيضانية الصحراوية المغربية وأدبائها على فضلهم ونبلهم كيف لم يعتنوا بتاريخها في كتاب معتبر من أول الزمان إلى الآن ، مع كثرة ما وقع فيها من الأمور الكبار التي ينبغي الاعتناء بكتابتها وكثرة من كان بها من الأكابر من كل صنف الذين لا ينبغي أن تترك أخبارهم نسيا منسيا على جلالتها...*»

ولن يكون همنا في هذه المقالة أن نغامر بتقديم نموذج نظري يمكن من تقديم إجابة على هذه الإشكالية الهامة التي طرحها الشيخ سيديا بابا بوعي حاد.

وإنما سنكتفي في هذا السياق بالتذكير بالعلاقة الجلية المعروفة بين نشأة الخطاب التاريخي والممارسة المدنية أو بعبارة أوضح انبناء الوعي التاريخي لدى الفرد الذي تحول إلى مواطن داخل مدينة يشعر أنه فرد فعال فيها له دوره في التغيير "وصناعة الأحداث" ومن ثم تأويل التحولات المحيطة به انطلاقا من هذا الوعي ذاته.

وهو الأمر الذي أبرز "فرانسوا شاتليه" نشوءه لدى اليونان (٢) كما أننا نلاحظ -في المقابل -انبثاق الخطاب التاريخي في الفكر العربي الإسلامي داخل سياق سياسي محدد هو دولة المدينة وهو الأمر الذي يرمز إليه تأسيس هذا التاريخ ذاته على حدث الهجرة بالضبط وانطلاقا منها.(٣)

يتضح من الاعتبارات السابقة أن الخطاب التاريخي يتشكل في فضاء سياسي محدد هو فضاء الدولة المركزية حيث تقوم أنماط الممارسة السياسية المعقلنة التي يستمد منها هذا الخطاب معقوليته وتكمن هذه المعقولية في بناء ممارسة نظرية تتناول بالنظر والتحليل تلك الأحداث التي تبدو متفرقة متباعدة لا يربط بينها خط اتصال ، فإذا بالمؤرخ يشدها إلى بعضها البعض ويدخلها في نسق سببي - منطقي

شمولي- حيث يتحدد لكل منها موقعه الخاص.
فبدون هذا الطموح المفهومي لا تصبح الأحداث سوى إحساس غامض بالتحول والتغيير يصاحبه في أغلب الأحيان شعور بالهشاشة والاتجاه إلى الإضمحلال وهاجس الفناء والموت ، إذ حركة "الزمن" كما يقول "هايدغر" تتماهى مع تصاعد النقص والضعف والإحساس بضمور "الحاضر" وعدم ثباته.(٤)
ويكون هذا الشعور مصاحبًا ومواكبا لهشاشة الواقع السياسي المدني و التمزق الاجتماعي وغياب السلطة المركزية وعدم اطمئنان الفرد إلى محيطه الطبيعي -الثقافي- بل إحساس حاد بالقطيعة معه والاغتراب عنه.
فلنقل إذن إن غياب عقلانية السلطة المركزية (في إطار ارتباط نسقي المعرفة والسلطة في تجربة مركزية محددة) مسؤول إلى حد كبير عن افتقادنا أي أثر للكتابة التاريخية في النظام المعرفي الشنقيطي.
وكيف يكون ذلك في محيط اجتماعي -سياسي هش يتميز بعدم الإستقرار ودوام التصارع والتمزق والانقسام الطائفي؛ وهو الواقع الذي تمرد عليه الشيخ سيديا ذاته وحاول بوسائل شتى تغييره.

أليس من غريب الإتفاق اقتران "الوعي التاريخي" لديه "بالوعي السياسي" في لحظة بدأت فيها تظهر ملامح الدولة المركزية (الإستعمارية).
على أن هشاشة الواقع السياسي ليست سوى جانب من جوانب المحيط الطبيعي -الثقافي العام الذي ينطبع بمجمله بتلك الهشاشة والتمزق وعدم الاستقرار -إذ نلاحظ مع د. عبد الودود ولد الشيخ أن تاريخ بلاد شنقيط (موريتانيا) يحكمه مثلث بائس : "الغزو- الجفاف -الوباء" (٥) وهو الأمر الذي يفسر إلى حد بعيد الحركة السكانية والهجرات المتتابعة والحروب الداخلية وعدم استقرار السلطة السياسية ، وفوق ذلك كله غياب مفهوم «المواطنة » داخل إمارات صغيرة ليس باستطاعة حكامها رقابة رعاياهم في صحارى مترامية لا معنى للحديث عن حدود جغرافية وسياسية فيها. ومن هنا حضور مفهوم "بلاد السيبة" لدى علماء هذه البلاد (٦) إن محيطا هذا شأنه لا يمكن بالطبع أن يولد "عقلانية" تأريخية" ، وإنما شعورا مأساويا بالتحول وإحساسا حادا "بقهر" الزمن وجبروته ، مما يفضي إلى شكل من أشكال "الدهرية" ، (نستخدم العبارة هنا بعيدا عن دلالتها الجافة في علم الكلام). ويعني

ذلك أن الثقافة الشنقيطية عاشت مفهوم الزمن (ولم تنظره) من خلال صيغته الوجودية المأساوية التي تحيل إليها عبارة "دهر" التي ترد بكثرة وتلقائيا في الشعر الفصيح وخصوصا في الشعر "الشعبي" الذي يعتبر مرآة أكثر صدقا والتصاقا بالتجربة المعيشة (٧).

وعبارة "دهر" كما في القواميس تحيل إلى نوع من الزمن المفهومي الأبدي ومن ذلك قوله تعالى "وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما يهلكنا إلا الدهر" -ألا أن لهذا الزمن- بهذا المعنى- سلطة قاهرة تحول الهلاك عبر التحول (دهر:نزل به مكروه).

ومن المعروف في الشعر الجاهلي التظلم بالدهر والشكوى منه والإيمان بسطوته وسلطته والإحساس المأساوي بالتغيير والإنتقال ، وهي الاعتقادات التي اتخذت صيغة عالمة عبر مذهب "الدهرية" الذي حاربه الإسلام انطلاقا من مفهوم "القدر" و"الفعل الإلهي" (في الحديث الشريف: "لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله")

ويمكن أن نشير هنا إلى امتزاج المفهومين (القدرية الدينية والدهرية الجاهلية) في بنية الشعر الشعبي الشنقيطي في انتظار قراءة الشعر الفصيح انطلاقا من الشعبي الذي يمثل كما أشرنا آنفا التجربة المعيشة الصادقة ولا يتقيد بسلطة مرجعية سابقة عليه ، ويحاكيها كنموذج متعال على التاريخ.

ولعله من الطريف أن نلاحظ أن هذا الشعور بالتحول الزمني تم من خلال الإطار المكاني الذي يوفر فضاء التحول بكل مرارته الوجودية ، إذ المكان هو دوما في الشعر العربي لوحة الإسقاط الذي تنطبع فيها كل لحظات التجربة المعيشة ، وتنصهر فيها مرارة اللوعة والافتراق ، إذ نمط الترحال البدوي يرغم المرء على الانتقال المتواصل والمسير من موضع إلى آخر ، مخلفا في كل مكان ينتقل منه جزءا من عالمه العاطفي، مودعا في كل ربع من ربوعه لحظات من تجربته الوجودية. وهو الأمر الذي يزداد حدة باعتبار أن الفضاء المكاني لا يأخذ هويته ومعالمه إلا من خلال تلك التجربة المعيشة ذاتها. إذ بدونها لا يكون سوى موقع صغير من صحراء مترامية الأطراف ، لا تميزه عن غيره أي معالم قارة. ولذلك ينضج هاجس الاهتمام لدى الشاعر بالمعالم الصغيرة والمواقع الهشة التي تشكل لديه جغرافية عاطفية متميزة.

ويؤول الشعور بالتحول المكاني إلى الإنفصام في نفس الشاعر ، وهي الظاهرة الناتجة إذن من هاجس التحول بمرارته باعتباره ليس مجرد تحول مادي ، بل هو كذلك تحول انطولوجي ونفسي.

فهو تحول مادي باعتباره ترحالا في مسافة مكانية شاسعة غير محددة الحدود ولا مضبوطة المعالم.
كما أنه تحول انطولوجي يطال الكينونة ذاتها إذا وجهنا النظر إلى خصائص الدائرة الهشة للموجودات داخل نمط الإنتاج البدوي وما يرتبط به من مقومات ثقافية وجودية.

إلا أن مرارة التحول والإحساس الحاد بالزمن الغولي الجارف تجد تعبيرها القاسي في الانفصام داخل شخصية الشاعر ، وهو انفصام يفضي إلى توزع داخل عالمه النفسي بين "عقلانية الثبوت" وقيمها "ولا معقولية التحول"ومشاعرها. فيتجه الشاعر عندئذ إلى موقف وعظي تضرعي ، بل إلى حوار صامت ساخن مع ذاته قل مايفضي إلى حل أو استنباط ، بل يكتفي بالتعبير عن الإحساس بالمفارقة والمتاهة والضياع. ومما يثير الإنتباه هنا أن الشاعر يلجأ في مخاطبة ذاته إلى الحوار مع عنصر متخارج منها يعبر عنه "بالعقل" أو "الدلال" أو "البال" وهي عبارات تدل أبلغ دلالة على مظاهر هذا الانفصام.

أما كيف تتبدى هذه المقاييس النظرية العامة في الشعر الشعبي ؟ فذلك ما نخصص له دراسة تطبيقية قادمة تنطلق من هذا الإطار النظري وتأخذ مدونة لها مجموعة كبيرة من الشعر الشعبي ، نطمح إلى جمعها وتحقيقها ، وهو الأمر الذي ندعو زملاءنا من الأساتذة والباحثين إلى تكثيف الجهود في سبيله ، خدمة لهذا التراث الثري الذي يبدو اليوم معرضا للإهمال والإندثار

الهوامش

* تشكل هذه الدراسة مجرد الإطار النظري لبحث أوسع في الشعر الشعبي انطلاقا من النظرة الانتروبولوجية للثقافة الشعبية -وكما يلاحظ القارئ فإن منهجها يتخذ موقعه على هامش الاستكناه الفلسفي والنقد الأدبي دون إغفال للاعتبارات التاريخية بالمفهوم الواسع للعبارة.

(١) مخطوط يحققه الأستاذ ازيد بيه ولد محمد محمود أستاذ التاريخ في كلية الآداب -انواكشوط

(٢) انظر :

F. Châtelet : La naissance de l'histoire.Gallimard

(٣) حول انبثاق الكتابة التاريخية للثقافة العربية الإسلامية :انظر مثلا: عبد الله العروي : ثقافتنا في ضوء التاريخ. المركز الثقافي العربي الدار البيضاء

(4) M.Heidegger : L'Etre et le temps Gallimard

(5) A.W.Ould Cheikh : Nomadisme Islam et Pouvoir politique dans la Societé Maure Précoloniale
Thèse non publiée

(٦) انظر مثلا :

– الشيخ محمد المامي : كتاب "البادية" مخطوط
و – الشيخ سيدي محمد الكنتي :"الرسالة الغلاوية" مخطوط

(٧) نلاحظ أن هذا الشعر ما زال لم يجمع منه سوى النزر القليل ، كما أنه لم يخضع حتى الآن للدراسة الجادة. ولنسجل هنا فقط المجموعة الهامة التي جمعها المرحوم همام فال في "ديوان همام" كما نشير إلى "ديوان امحمد ولد أحمد يوره" (نشره الأستاذ بدنا بن احمدناه)

(٨) انظر "د ه ر" في [القاموس المحيط] و [لسان العرب].